الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم علم الاجتماع

محاضرات موجهة

لطلبة السنة الثانية ليسانس ل م د

تخصص: أنثروبولجيا ثقافية واجتماعية

مقياس:

أنثروبولوجيا الجزائر

إعداد الدكتور:

غفور عبد الباقي

السنة الجامعية: 2021-2022

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية
- 1 -
تلمسان

كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية
المجلس العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

فهرس المحتويات

المحتويات	الصفحة
فهرس المحتويات	2
تقديم حول المطبوعة	5
المحاضرة الأولى	
مقدمة (التعريف بالمقياس، أهميته، محاوره، أهدافه)	7
المحور الأول: واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر	12
المحاضرة الثانية:	
المرحلة الأولى: واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر قبل الاستقلال (الدراسات الكولونيالية)	13
أولا: فترة الدراسات الاستكشافية..	13
ثانيا: فترة الدراسات العسكرية (دراسات الضابط – الباحث)	15
ثالثا: فترة الدراسات الأكاديمية	22
المحاضرة الثالثة:	
المرحلة الثانية: واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر غداة الاستقلال وأسبابه	24
أولا: اقتران علم الأنثروبولوجيا بالتوجه الكولونيالي – الاستعماري	24
ثانيا: سوء الفهم للمعرفة الأنتروبولوجية	27
ثالثا: تأخر اعتماد الأنثروبولوجيا كتخصص علمي في الجامعة الجزائرية	28
رابعا: الاهتمام بالعلوم الدقيقة على حساب العلوم الاجتماعية بفعل عامل التنمية	29
خامسا: انعدام الأمن في ميدان الدراسة	30
سادسا: التبعية في مجال التصورات النظرية	30
المحاضرة الرابعة:	
المرحلة الثالثة: واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر في فترة الثمانينيات (في الجامعة الجزائرية)	31
المحور الثاني: أسس الدراسات الأنثروبولوجية الاستعمارية في الجزائر	33
المحاضرة الخامسة:	
الأساس الأول: بث وزرع المفاهيم المغلوطة	33
أولا: الإرث الشرعي الروماني من خلال التركيز على الحقبة الرومانية	33

المجلس العلمي
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -

ثانيا: المهمة التمدينية	36
ثالثا: مركزية الإنسان الغربي	38
رابعا: التثاقف	43
خامسا: الحماية	43
المحاضرة السادسة:	
الأساس الثاني: تفكيك البنية الاجتماعية	44
أولا: الاتجاه الانقسامي (الانشطارية)	44
ثانيا: سياسة فرق تسد	47
المحاضرة السابعة:	
الأساس الثالث: طمس الهوية الوطنية	55
أولا: التعليم	55
1. سياسة الإدماج في التعليم الفرنسي	56
2. الإجراءات المجحفة في حق الجزائري	58
1.2. التقليل من إقامة المدارس الخاصة بالجزائريين في كل مراحل التعليم	58
2.2. تحديد عدد التلاميذ الجزائريين في كل مراحل التعليم	58
3.2. خفض ميزانية تعليم الجزائريين إلى أقل حد ممكن	60
4.2. الاهتمام بالتعليم النظري على حساب التعليم الفني والمهني	60
5.2. فصل تعليم الجزائريين عن تعليم الأوروبيين وإضعافه	61
6.2. تصعيب الامتحانات أمام الجزائريين ووضع شروط قاسية لها	61
7.2. فرض مصاريف تعليمية باهظة بعد المرحلة الابتدائية تفوق إمكانيات الجزائريين	62
3. عرقلة تطور المؤسسات التعليمية والدينية في الجزائر	63
المحاضرة الثامنة:	
ثانيا: اللغة العربية	68
المحاضرة التاسعة:	
ثالثا: الدين	71
رابعا: التنصير	74
المحاضرة العاشرة:	
خامسا: القضاء	79

المجلس العلمي
كلية العلوم الإجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية
العلوم الإنسانية
و العلوم الإجتماعية
تلمسان

سادسا: الوقف	81
سابعا: الحج	88
ثامنا: التاريخ	88
المحاضرة الحادية عشر:	
تاسعا: المرأة	92
عاشرا: قانون الألقاب العائلية	94
حادي عشر: المؤسسات الثقافية	96
ثاني عشر: العمارة الكولونيالية	97
المحور الثالث: من أنثروبولوجيا استعمارية إلى أنثروبولوجيا علمية	101
المحاضرة الثانية عشر:	
أولا: النظرية النقدية – التحليلية للدراسات الأنثروبولوجية الكولونيالية للمجتمع الجزائري	101
المحاضرة الثالثة عشر:	
ثانيا: بعث الفكر الأنثروبولوجي في الجزائر بين كل من دراسة الآخر ودراسة الأنا	102
المحاضرة الرابعة عشر:	
الخاتمة: (حوصلة حول محتوى المقياس والغاية المتوخاة منه).	113
قائمة المراجع	115

تقديم حول المطبوعة:

هذه المطبوعة البيداغوجية الموسومة بـ "أنثروبولوجيا الجزائر"، هي في الأصل عبارة عن مجموعة محاضرات لمادة مقررة لطلبة السنة ثانية ليسانس(ل. م. د)، تخصص أنثروبولوجيا اجتماعية وثقافية.

والجدير بالذكر أن وصف هذه المادة لم يرد ضمن عنوان وحدات التعليم الأساسية للسداسي الثالث الخاص بعرض تكوين علم الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، لا قبل التعديل ولا بعده.

لقد حاولنا بحكم تخصصنا من جهة، وتدريسنا لهذه المادة طيلة أربع مواسم جامعية متتالية من جهة أخرى، أن تكون محاور هذه المطبوعة متماشية مع المستوى التعليمي للطلبة، وفي الآن نفسه مع الأبعاد الإبستيمولوجية ذات الصلة بالأنثروبولوجيا كتخصص علمي قائم بذاته، انطلاقا مما توفر من دراسات وأبحاث في الموضوع، بغية التطرق لجملة من القضايا التي تنطوي عليها هذه المادة ومناقشتها.

إن المعارف المكتسبة من هذه المادة تعتبر اللبنة الأولى للطالب في اكتساب النظرة الأنثروبولوجية في الطرح والتحليل والنقد. وهذه نقطة نحسبها جوهرية في تخصص الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، خاصة وأن الدراسات الأنثروبولوجية هي دراسات ميدانية بالدرجة الأولى.

وقد جاءت هذه المطبوعة ضمن ثلاثة محاور، إضافة إلى مقدمة وخاتمة وقائمة مراجع، من خلال التركيز على المعرفة الأنثروبولوجية بالجزائر، محاولين ضمن هذا السياق وفق منظور تحليلي- نقدي، مناقشة مسار تشكّل هذه المعرفة وتبلورها، بالوقوف على واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر عبر المراحل الكبرى التي رافقتها، مع إبراز الأسس التي قامت عليها، ومناقشة مدى مساهمة كل من دراسات الآخر والأنا في بعث فكر أنثروبولوجي في الجزائر، بعيدا عن الإيديولوجيا والذاتية.

حيث تناولنا في المحور الأول واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر قبل الاستقلال وغداته، ليتبين أن معظم الدراسات الأنثروبولوجية قام بها الآخر، فرنسا الاستعمارية من خلال ضباطها وأكاديمييها.

أما المحور الثاني فخصصناه للوقوف على الأسس التي قامت عليها الدراسات الأنثروبولوجية — الكولونيالية، لتنقيتها من الخلفية التي غذتها، ومن ثم الاستفادة منها.

فمهما كانت درجة ارتباط المعرفة الأنثروبولوجية بمشروع الاحتلال، فقد وفرت للباحثين المحليين المعاصرين مادة معرفية لا يمكن إنكار أهميتها وقيمتها العلمية، بغرض إنجاز بحوث ودراسات حول المجتمع الجزائري في الزمن الراهن، وكذا بلورة كثير من التصورات والرؤى الجديدة، وملامسة عدد من بؤر التفكير في هذا الحقل المعرفي الهام، بالاستناد إلى الإرث النظري الضخم الذي يعود إلى تلك الدراسات.

وجاء المحور الثالث بغرض تناول النظرة التحليلية—النقدية لتلك الدراسات، مما قد تفتح لباحثينا السبل الكفيلة ببعث الفكر الأنثروبولوجي في الجزائر، بعيدا عن التصورات المسبقة والفهوم الخاطئة التي قد تنعكس على واقع الممارسة الأنثروبولوجية في الجزائر.

المحاضرة الأولى:

مقدمة:

الأنثروبولوجيا هو علم دراسة الإنسان في ثقافته وبنائه الاجتماعي، ويذكر "جاك لومبار" (Jacques LOMBARD) أن هذا العلم يهتم بدراسة المجتمعات البعيدة والغريبة، أي دراسة الإنسان " الآخر" الذي يختلف عن الإنسان الغربي في ثقافته وعادته وتقاليده، ودرجة وعيه وتقدمه، وهذه إشارة إلى الشعوب البدائية ذات الثقافة البسيطة والتقليدية مقارنة بثقافة الإنسان الأبيض (الغربي).[1]

إن ما يميز علم الأنثروبولوجيا عن غيره من العلوم الاجتماعية والإنسانية، أنه علم شامل يدرس الإنسان بشكل عام، فهي تنقسم إلى أنثروبولوجيا طبيعية، تدرس الإنسان في طبيعته البيولوجية، بحيث يهتم هذا الفرع بدراسة السمات الفيزيقية للإنسان، والتغيرات العنصرية والأعراق، وأصل السلالات البشرية وتغير الأجناس، فتدرس الإنسان في نشأته الأولى وأهم المراحل التي مر بها في تطوره عبر الزمن إلى أن أصبح إنسانا بالصفات التي يعرف بها حاليا، وتدرس كذلك ملامح الإنسان الحالي ومقارنتها بالملامح الفيزيقية للإنسان القديم عن طريق دلائل الحفريات وبالتعاون مع تخصصات أخرى كعلم الآثار وعلم التشريح والآنثروبيومتري ...الخ.

أما القسم الثاني فيعرف بالأنثروبولوجيا الثقافية فيعنى بدراسة الجوانب الاجتماعية والثقافية للإنسان. ونظرا لشاسعة هذا القسم هناك من الباحثين من يجعل الإطار الاجتماعي في الدراسات الأنثروبولوجية جزءا لا يتجزأ من الثقافة ويسمى هذا القسم بالأنثروبولوجيا الثقافية.

أما الأنثروبولوجيا الاجتماعية- كفرع مستقل- يتجاوز عمره نصف قرن بالكاد، وقد أوجده العلماء كي يتميز بمجال مختلف عن مجال الإثنولوجيا؛ ويعتبر العلامة "سير جيمس فريزر" (sir James Fraser) أول من استخدم هذا الأصل الجديد في محاضرته تحت عنوان "مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية" وفي هذه المحاضرة حدد الأستاذ "جيمس فريزر" دراسة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها محاولة علمية للكشف عما يسميه "بالقوانين العامة" التي تحكم الظواهر المختلفة في حياة الإنسان، وتفسر ماضي الظواهر ليتمكن على ضوئها من التنبؤ بمستقبل المجتمعات البشرية، استنادا إلى الإدراك الدقيق لتلك القوانين السوسيولوجية العامة التي تنظم حياة الإنسان عبر

[1]- جاك لومبار، مدخل إلى الإثنولوجيا ترجمة: حسن قبيسي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية
العلوم الإنسانية
و العلوم الإجتماعية
تلمسان

الزمن، حيث يعتقد بأن الطبيعة البشرية واحدة بعينها في كل زمان ومكان.[1]

فحقيقة الأنثروبولوجيا الاجتماعية هي الإسهام في دراسة المجتمع الإنساني دراسة منهجية منظمة تستند على المقارنة بين المجتمعات الإنسانية عند تكوينها؛ غير أن الأنثروبولوجيين ركزوا في دراستهم على الأشكال الأولية للمجتمع البدائي.

إن ظهور الأنثروبولوجيا كعلم جديد تزامن مع بداية الحركات الاستعمارية، التي غزت فيها الدول الأوروبية بقاع مختلفة من العالم، واكتشفت أيضا مناطق وشعوب لم تكن معروفة، وهذا قصد بسط نفوذها وتوسعة رقعتها الجغرافية من جهة، ومن جهة أخرى استغلال الخيرات الكثيرة والموارد الطبيعية والبشرية المتنوعة لهذه المناطق والبقاع. كما عرفت هذه الفترة بعصر الاستعمار الكلاسيكي، وهو عصر البحث عن المستعمرات، عن أسواق وعن يد عاملة وعن مواد خام وعن زبائن جدد يشترون صناعات غير متوفرة في أرضهم.

لم يكن هذا الاستعمار عسكريا وحسب، كما أنه لم يدرّس في كتب التاريخ ولا في حوليات الأمم والشعوب والدول، بل كان استعمارا، وكانت الثقافة بعض أسلحته، ولربما السلاح الأمضى؛ وهو ما أدى إلى انحراف هذا الفكر عن مساره الصحيح. حيث تحوّل هذا التيار الفكري ليصبح أداة في يد الاستعمار.

فالأنثروبولوجيا في الأساس كانت تحمل في جوهرها مبدأ إنساني أساسه المساواة ونبذ العنصرية، لأن الإنسانية وحدة واحدة في كل عصر، وما الصورة التي نحن عليها اليوم إلا تطورا عن صورة أسلافنا. فالرغبة في معرفة المجتمعات الأخرى من حيث الأجناس والسلالات والأعراف والثقافات تعتبر موضوعا للأنثروبولوجيا كعلم، بل فطرة يفطر عليها العلماء في بحثهم عن الحقائق كما هو الحال عند اليونان ومن بعدهم الرومان.

حيث يعد المؤرخ الإغريقي اليوناني "هيرودوتس" (Hérodotus) أول من صوّر أحلام الشعوب وعاداتهم، وطرح فكرة وجود التّنوع والفوارق فيما بينهم من حيث النواحي السلالية والثقافية واللغوية والدينية...، فهو أول من قام بجمع معلومات وصفية دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير الأوروبيين (حوالي خمسين شعبا)، حيث تناول بالتفصيل تقاليدهم وعاداتهم وملامحهم الجسمية وأصولهم السلالية، إضافة إلى أنه قدم وصفا دقيقا لمصر وأحوالها وشعبها.[2]

---

[1]- إسماعيل قباري، الأنثروبولوجيا العامة، منشأ المعارف الأنثروبولوجية، 1970، ص12.

[2]- عيسى الشماس، مدخل إلى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص16.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية
العلوم الانسانية
و العلوم الإجتماعية
تلمسان

ومن بعده الروماني "لوكيرتيوس كاروس" (Lucretius) والذي خصص أبوابا لعرض فكرتي التطور والتقدم، حيث تحدث عن الإنسان الأول والعقد الاجتماعي، ونظام الملكية والحكومة، ونشأة اللغة، إضافة إلى مناقشة العادات والتقاليد والفنون والأزياء والموسيقى؛ وقد رأى بعض الأنثروبولوجيون أن "لوكرتيوس استطاع أن يتصور مسار البشرية في العصور الحجرية ثم البرونزية ثم الحديدية."[1]

كان يفترض في الأنثروبولوجيا أن تكون علم الوحدة البشرية، لا حجة في يد الغربيين لتقسيم المجتمعات واستعمارها بحكم التفوق الخلقي، لأن العلم يعلّم الأخلاق لا الخبث والنفاق. غير أن الغرب وجّه أنظاره إلى المجتمعات الأجنبية والثقافات الأجنبية لغرض ظاهره علمي وباطنه إيديولوجي استعماري، وكان للأنثروبولوجيا يدا طويلة في ذلك؛ والواضح أن منذ نشأتها كعلم وضعي والمبدأ الاستعماري يراودهم من منطلق الإثنية المركزية.

حيث سعت القوى الاستعمارية الكبرى من وراء توظيف الدراسات الأنثروبولوجية خلال هذه المرحلة إلى فهم الخصوصيات الثقافية والاجتماعية والتركيبات الإثنية والعرقية للمجتمعات المراد السيطرة عليها. ولذا فقد شجعت الإدارات الاستعمارية الأبحاث الأنثروبولوجية بهدف "القيام بدراسة ظاهرة التثاقف وعملية تأثير الثقافة الغربية على الدول المستعمرة، ومحاولة معرفة درجة التأقلم أو المقاومة للثقافة المستوردة من طرف المستعمر".[2]

ومن هنا لا يبدو غريبا على الإطلاق أن تترافق فترة ازدهار بعض العلوم الإنسانية ومنها الأنثروبولوجيا مع فترة التوسع الغربي أولا ثم الأمريكي تاليا باتجاه آسيا وأمريكا الجنوبية واستراليا.[3]

فالأنثروبولوجيا خدمت الاستعمار لتوطيد هيمنته على الشعوب، ويعبّر الأنثروبولوجي الإنجليزي "إيفانز بريتشارد" عن العلاقة بين الاستعمار والأنثروبولوجيا بقوله: "إذا كانت السياسة الاستعمارية لحكومة ما تقوم على حكم شعب من الشعوب بواسطة رؤسائه، فمن المفيد أن يعرف من هم هؤلاء الرؤساء، ما هي وظيفتهم وسلطتهم وامتيازاتهم وواجباتهم، فإذا سلمنا بأن حكم شعب ينبغي أن يتم وفقا لشرائعه الخاصة وعاداته الخاصة، فيجب أولا أن نكتشف هذه الشرائع وهذه العادات".[4]

---

[1] – المرجع نفسه، ص17.

[2] – مولاي الحاج مراد، مكانة التحقيق الميداني في الدراسات الأنثروبولوجية، وقائع الملتقى الدولي "أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر"، المنعقد بتيميمون أيام 22،23،24 نوفمبر 1999، تنسيق: أ. نذير معروف، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2002، ص ص 21- 22.

[3] – جيرار لكلرك، الأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة: جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1990، ص7.

[4] – الزواوي بغورة، المنهج البنيوي، بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2001، ص21.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية
تلمسان

لقد كان للاستعمار نفس المنطق مع مختلف الشعوب التي استعمرها؛ ففي السودان قبل استقلاله عام 1956م، كانت البحوث خلال المرحة الاستعمارية تجري على أيدي باحثين أجانب وتحت إشراف حكومة أجنبية، وهي الفترة التي أنجز فيها "إيفنز بريتشارد" و"نادل" و"لينهارت" و"بيكستون" أعمالهم.[1]

لقد وضح الأنثروبولوجي الإنجليزي "إيفانز بريتشارد" هذه العلاقة بين الأنثروبولوجيا والمستعمر في التعاون الذي أجري بين الطرفين خلال الاحتلال البريطاني للسودان، حيث يقول: "شجعت حكومة السودان الإنجليزي المصري آنذاك بشكل دائم البحث الأنثروبولوجي في جنوب السودان سواء كان احترافيا أم على سبيل الهواية؛ فقام "ج .ج .سليجمان" وزوجته و"د. سليجمان" بمسوح في الفترتين (1909م- 1910م) و(1921م-1922م)، ونشرت ملاحظاتهما إلى جانب معلومات أخرى جمعها آخرون عام 1932م في الكتاب المعنون "القبائل الوثنية في السودان النيلي". وقد صرح "إ. بريتشارد" بأنه قام بست زيارات إلى جنوب السودان وأجرى دراسات على المناطق التي لم يغطيها الزوجان "سليجمان" من قبله في الزيارة الأولى، أما خلال الزيارات الخمس الأخرى فقد أجرى دراسات مكثفة "للأزاندي" و"النوير "و"للأنواك" بدرجة أقل؛ وقد قام كذلك "لينهارت" بخمس زيارات إلى جنوب السودان أيضا خلال الفترة (1948م-1954م) قام خلالها بدراسة مكثفة على "الدينكا" و"الأنواك"؛ كما قام "نادل" بمواصلة أعمال "بريتشارد" و"سجلمان" في وسط سكان "جبال النوبا". بينما ركزت الباحثة "جين بيكستون" على دراسة "الماندراري" في الفترة ما بين (1951م-1952م)؛ لقد كانت رغبة الحكومة في رعاية البحوث الأنثروبولوجية جزءا من سياسة عامة — دعمتها وزارة المستعمرات لجمع المزيد من المعلومات الموثوق بها عن التنظيم الاجتماعي للسكان ونظم معتقداتهم، حيث تعاونت الإدارة الاستعمارية مع الأنثروبولوجيين في هذه المرحلة على غرس إيديولوجيا الاستعمار، وكان الهدف الرئيسي هو ضبط السكان الوطنيين وقمعهم واستغلالهم.[2]

بالنسبة للجزائر لقد ارتبطت الأنثروبولوجيا – لدى الكثير من الدارسين– بحركة المد الاستعماري الأوربي خصوصا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث كانت الإدارات الأوروبية في حاجة إلى معرفة خصائص الشعوب التي يريدون احتلالها، أو كانوا قد احتلوها بالفعل، وذلك باعتبار أن الأنثروبولوجيا ليست مجرد نتاج فكري ولا نظريات أو أفكار متداولة عن الإنسان، بقدر ما هي رؤية شاملة ودقيقة للواقع الاجتماعي والثقافي

[1]– عبد الغفار محمد أحمد، حالة الأنثروبولوجيا في السودان، في أركاماني، مجلة الآثار والأنثروبولوجيا السودانية، العدد 3، أوغسطس 2002، ص2.
الموقع: http://www.arkamani.org/vol/_3/Anthropology_vol/state_of_anth_arabic.htm

[2]– المرجع نفسه، ص ص4-5.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية
- 1 -
تلمسان

الذي يعيش فيه الإنسان بالإضافة إلى النظرة التي تقدمها عن مجموع القيم والأخلاق التي تسم أفكاره وسلوكاته، فإن الرؤى التي تقدمها عن هذا الإنسان ما هي في الواقع إلا انعكاسا للظروف التاريخية والاجتماعية الاقتصادية والسياسية التي تحيط بهذا الإنسان في موقفه داخل المجتمع وداخل الدولة.[1]

ولقد اقترن البحث الأنثروبولوجي بالجزائر بالحركة الكولونيالية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وذلك بغية الاتصال بالبنى العميقة للمجتمع الجزائري والتي من شأنها تمهيد وتهيئة وتسهيل المهمات العسكرية.

فقد توصل المحتل إلى أن الاحتلال العسكري يجب أن تصحبه معرفة بالخصائص الجغرافية للأرض وكذا الأنماط الثقافية والاجتماعية والدينية المهيمنة على الأوساط الشعبية. فبدأ الاهتمام بالإنسان الجزائري. وكان العسكريون الفرنسيون هم الأوائل الذين خاضوا حقل الدراسة الأنثروبولوجية بالجزائر، ولا زالت أعمال "كوفيه" (cauvet) والإخوة "مارسي" (Marcais) و"باسي" (Basset)، و"ألفرد بال" (A.bell) وغيرهم ... تشهد على ذلك الاهتمام الذي خصته الإدارة الاستعمارية بالمجتمع الجزائري ومكوناته الإثنية والدينية وغيرها.

[1]- بلقاسم بن زنين، الجزائر في الفكر الأنتروبولوجي، (مخطوط)، رسالة ماجستير في الأنتروبولوجيا، جامعة أبي بكر بلقايد ، تلمسان، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم الثقافة الشعبية، 2000-2001، ص02.

المحور الأول:

واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر.

لقد مثلت الجزائر بالنسبة للفرنسيين الأوائل الذين قدموا سنة 1830م، ذلك المجهول، نقطة استفهام كبرى، شعب لا يعرفون عنه شيئا ذا بال. لكن مع اصطدامهم بحركات المقاومة الشعبية والرفض الشعبي فطن الفرنسيون إلى ضرورة معرفة هذا الشعب ودراسته من أجل ترويضه والسيطرة عليه. وهنا ظهرت ضرورة استدعاء الأنثروبولوجيا وعسكرتها بالطريقة التي تحقق بها هذه الأهداف.

لقد حاول "ألكسي دو طوكفيل" (Alexis de Tocqueville) الربط بين السياسة الاستعمارية والمعرفة حول الجزائر من خلال تحليل إحدى المراسلات الاستعمارية التي تطرقت إلى دراسة العادات والتقاليد والأعراف السائدة لدى الجزائريين، مضمونها: "لم تكن لدينا أية أفكار واضحة عن مختلف القوميات التي تسكن المنطقة ونواميسها الاجتماعية، وقد كنا نجهل أبسط المعاني لأي كلمة من اللغة التي يتحدثونها وحتى جغرافية البلد نفسه، موارده، مجاريه المائية، مدنه والخصائص المناخية".[1]

ويضيف نفس الكاتب: "فعندما نتمكن من اللغة ومعرفة الخلفيات وممارسات العرب، وعندما نتمكن من اكتساب نفس الهيمنة التي يكنها هؤلاء الرجال للحكم السابق – الحكم التركي– عندئذ يصبح المجال متاحا لنا لممارسة أساليبنا في الحكم ومن تم فرنسة البلاد ولفها من حولنا".[2]

لقد تبين لنا من هذه الرسالة أن الحركة الاستعمارية على الجزائر لم تقتصر على فرض منطقها بالقوة، ولكن سمحت لها الدراسة الأولى التي استقتها عن الشعوب الأخرى المسماة (بدائية ووحشية) ببلورة الفكرة الإيديولوجية للتدخل الاستعماري المبرر على أساس إيديولوجي مقبول بالنسبة له (أي الغرب)، وقد تجلى ذلك فيما كتبه "أرنست مرسيي" (Ernest Mercier) الذي ينتمي من حيث أعماله إلى الفترة (1870م–1890م) في كتابه سنة 1901م تحت عنوان: "مسألة الأهالي في الجزائر في بداية القرن 20" (La question indigène en Algérie au commencement de XX sciècle) فقد بدا له أن وضع المعارف حول السكان الأهالي غير

---

[1]– فيليب لوكا جون كلود فاتان، جزائر الأنتروبولوجيون، نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، ترجمة محمد يحياتن، بشير بولعراف، وردة لبنان، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، وزارة المجاهدين، 2002، ص94.

[2]– المرجع نفسه، ص97.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية
العلوم الإنسانية
والعلوم الإجتماعية
- 1 -
تلمسان

كاف، والحال أن المعارف حول هؤلاء السكان هي التي لا تبعث على الرضا، وهلوسيلا طيب للخلوص إلى أن هناك فرقا بين الأوروبيين والأهالي، ومن ثم حق الأوائل في إدارة شؤون الآخرين[1].

ويمكننا الوقوف على الكتابات أو الدراسات الأنثروبولوجية حول الجزائر من خلال المراحل الثلاثة التالية:

المحاضرة الثانية:

المرحلة الأولى: واقع الأنتروبولوجيا في الجزائر قبل الأستقلال (الدراسات الأنثروبولوجية الكولونيالية).

في حقل الدراسات الأنثروبولوجية الكولونيالية المبكرة للمجتمع الجزائري نستطيع أن نميز ثلاث فترات متميزة من الدراسات حسب التطور المرحلي والاستراتيجي الذي اعتمد عليه المستعمر، وهي: فترة الدراسات الاستكشافية المرتبطة بتحضير الحملة الاستعمارية على الجزائر قبل 1830م، فترة الدراسات العسكرية أو ما يعرف بمرحلة الضابط- الباحث، التي تمتد ما بين (1830م و1870م). أما الفترة الثالثة والتي تبدأ من سنة 1870م وتستمر حتى بعد الاستقلال، فقد مثلتها الأعمال الأكاديمية.

والجدير بالذكر أن الغاية من كل هذه الدراسات كانت فهم تركيبة المجتمع الجزائري والنفاذ إلى أعماق ثقافته، من أجل إحكام السيطرة عليه.

وعلى رأي "حسن شحاتة سعفان" فإننا لا نستطيع أن نفهم كثيرا من ظواهرنا ونظمنا وعاداتنا الاجتماعية وتقاليدنا إلا إذا رجعنا إلى علم الإنسان ليعيننا على فهمها وفهم أصولها وماذا طرأ عليها.[2]

أولا: فترة الدراسات الاستكشافية.

لقد اعتمد المستدمر – بتعبير مولود قاسم- في الدراسات الاستكشافية قبل الاحتلال على الدراسات التاريخية للمنطقة ليأخذ صورة أولية عمّا يهمه، خاصة تضاريس البلاد، مناخها ووديانها وحتى مسالكها المختلفة.

وعندما نرجع إلى البحث عن المصادر الأولى لنشأة هذه الأبحاث الاستكشافية، فإننا نجدها تعود إلى المجهودات والأعمال التي قامت بها جماعة من الرحالة والتجار والمغامرين الذين ألفوا كثيرا من الوثائق والنصوص حول طبيعة الممالك البربرية ومماليك إفريقيا الشمالية الموجودة في منطقة فاس بالمغرب ومنطقة الجزائر.

---

[1] – المرجع نفسه، ص 25.

[2] – حسن شحاتة سعفان، علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، منشورات مكتبة العرفان، بيروت، 1966، ص3.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية
- 1 -
تلمسان

إضافة إلى هذه الأعمال، نجد مساهمات ذات أهمية تاريخية واستراتيجية خاصة، منها تلك التي قام بها:

– الرحالة الإنجليزي الدكتور "توماس شاو" (Shaw) الذي ترك كتابات هامة حول الجزائريين بين سنة 1720م إلى سنة 1752م، وحينها كان مسافرا إنجليزيا إلى الجزائر قبل أن يعين كممثل للكنيسة لدى قنصل بريطانيا في الجزائر.[1]

ولقد قدم "شاو" عملا نادرا بعنوان "جولات في ولايات متعددة ببلاد البربر والشرق" تضمن أوصافا دقيقة وتفاصيل عن بلاد الجزائر، وخاصة عن ريفها ومنتجاتها وآدابها، مثلما تضمن قليلا من المعلومات عن الحياة السياسية والإدارية.

– كما نجد كذلك الرحالة "جان أندري بايسونال" (Peyssonnel) خلال عامي (1724م– 1725م)، الذي زار الشرق الجزائري وقدم عملا هاما عن الجزائر، تضمن معلومات جغرافية، طبيعية واجتماعية قيمة.

ففي تقرير له قدمه في 19 جوان 1725م يقول: "مررنا عبر ثلاث قرى عصرية يسكنها "عرب" يُسَمَّون "قبايل"، ليس لها لا زعيم ... ولا قائد عسكري، كل واحد منهم سيِّد وحر في اختياراته، وهم في غالب الأحيان "لصوص" أو بالأحرى حيوانات ضارية (bêtes féroces) تسكن تلك الجبال ... والزواوة ليسوا إلا "قبايل"، أو هذا الصنف (espèce) المتوحش وهم رجال لا يُرَوَّضون".[2] ويضيف بعيدا في تقريره: "كل عرب هذه البلاد — وهو يقصد القبايل– يسكنون في أكواخ".[3]

– أما الرحالة "ديسفونتير" (Desfontaire) فيصف أحوال جبال جرجرة وحالة اللاأمن التي تسود فيها في تقرير بعثه في 18 سبتمبر 1785م بقوله: "لكي لا نعرض أحدا من قافلتنا للسرقة من طرف قبايل جرجرة الذين لا يروّضون... وللعرب (وهو يقصد القبايل) هنا عدد كبير من القرى... وهم يقاتلون بشجاعة ولا يدفعون شيئا للأتراك ويسلبون القوافل".[4]

من خلال هذين التقريرين المعروضين على سبيل المثال لا الحصر، نستخلص أن نظرة الفرنسيين للمجتمع الجزائري قبل احتلال الجزائر كانت شمولية وتجهل المكونات السوسيوثقافية للشعب الجزائري، إذ كانت تنطلق من

[1]- François Leimdorpher, Discours académique et colonisation. Thèmes de recherches sur l'Algérie pendant la période coloniale. (Corpus de thèses de droit et lettres 1880-1962), Editions Publique, Paris 1992, p. 269.
[2] - A. Berbrugger, voyage au camp d'Abdelkader, bibliothèque royale, Paris, 1839, p.65.
[3] - Ibid, p. 75.
[4] - Ibid, p. 76.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية
تلمسان

عقدة الموروث التاريخي الغربي الذي يضع العرب المسلمين برسالتهم الحضارية الغالبة آنذاك في وجه الغرب الصليبي المغلوب؛ فكان الغرب ينظر إلى العالم الإسلامي كوحدة حضارية موحدة دينيا ولغويا وسياسيا، ولا يفرق بين مختلف العناصر الإثنية التي اندمجت لتشكل فسيفساء الأمة الإسلامية.

كما أن نظرتهم "للقبائل" بالخصوص يشوبها الضيم، وأقل ما يمكن قوله، هو كونها أحكام قيمية تعميمية تفتقر إلى أدوات المنهج العلمي، إذ كيف يمكن تعميم صفة – "التوحش" وخاصة "اللصوصية" – التي يقول عنها "شارل روبير أجيرون"(Charles- Robert Ageron): "كانت للصوصية القبائل شهرة كبيرة".[1] – على كافة "القبائل" دون القيام بدراسات مسحية تشمل كافة سكان هذه البطون، علما أن الكثافة السكانية كانت عالية في هذه المناطق، مما يعطي عددا كبيرا من القرى والمداشر، وثانيا توزعها على مساحات جبلية وعرة وشاسعة تتطلب إمكانات مادية وإطارا زمنيا كبيرا.

ثانيا: فترة الدراسات العسكرية (دراسات الضابط – الباحث).

بعد الدراسات الاستكشافية ظهر نوع آخر من الدراسات هي الدراسات العسكرية. إلا أن هذا لا يعني أن الدراسات الاستكشافية الأولى لا تدخل في إطار ما نسميه بالدراسات العسكرية، كل ما في الأمر هو أن الدراسات العسكرية تأتي بعد 1830م، وقامت على يد العسكريين في المجال، وأن أصحاب هذه الدراسات هم الضباط المكونين للجيش الفرنسي وفي نفس الوقت هم الباحثون والمنتجون لهذه الدراسات. ولذا تعرف كذلك بدراسات الضابط– الباحث.

فالدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر في بداياتها الأولى ارتبطت بالعسكريين والضباط الميدانيين الذين شكلوا النواة الأولى للبحث الأنثروبولوجي في غياب علماء مختصين. فالمحتل الذي جاء غازيا لم يكن يعرف الكثير عن هذه الأرض ولا عن قاطنيها، مما استوجب معرفة كل ما يحيط بوجود شعب له ما يميزه من أنماط حياتية وتشريعات ومعتقدات وفلكلور وغيره. ومن ثم أصبح لزاما أن يخوض العسكريون مهمة التنقيب الميداني لإماطة اللثام عن هوية هذا الشعب وخصوصياته الثقافية والاجتماعية.

ويشير صاحبا كتاب "جزائر الأنثروبولوجيين" (L'Algérie des anthropologues) "فيليب لوكا" (Philippe Lucas) و"جان كلود فاتان" (Jean Claude Vatin) إلى أن الاكتشاف العلمي للجزائري هو إذن

[1]- Charles-Robert Ageron, Les Algériens Musulmans et la France (1871-1919), 2 tomes, Paris, PUF, 1968, p.885.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
تلمسان

قبل كل شيء متوقف على الاحتلال، وقد شرع فيه حقا بواسطة العسكريين، وتعاظم في الميدان وفق رؤيتهم، بحيث يمكن أن تقتفي مع التفاوت الخفيف والضروري للتدوين والانطباع، المراحل المتعاقبة لهذا الاستكشاف، حيث خصصت السنوات العشر الأولى بالأحرى للجزائر العاصمة والمدن المغزوة وضواحيها القريبة.[1]

فكان العسكريون أول من بدأ الدراسة الأنثروبولوجية للمجتمع الجزائري الذي كان ينظر إليه على أنه تجمع هجين لطوائف وفئات اجتماعية مختلفة ومتباينة، منها العربي والبربري واليهودي، وبذلك فالجزائريون كانوا بالنسبة للأنثروبولوجيين الاستعماريين كما وصفهم "ترميلي" (Trumulet) يستحقون كل صفات الدناءة والخساسة والاحتقار.[2]

فالفرنسيون –كما أسلفنا القول – لم يكونوا يعرفون عن الجزائر الشيء الكثير ذا الأهمية قبل الاحتلال، ولم تكن لديهم وثائق مدونة للأنماط الحياتية والاعتقادية والميولات الثقافية لهذا الشعب، اللهم مذكرات بعض هواة الكتابة الأدبية الذين رصدوا من خلالها عالما غريبا عن عالمهم، عالم مثير للدهشة والاستغراب حينا وللسخرية، وربما الاحتقار أحايين أخرى.

وبعد مرور عقد من الزمن على نزول الجيوش، وبعد أن تم اختيار توسع عسكري بعينه، أقدمت الحكومة (الاستعمارية) على تحر (enquête) واسع النطاق، وقد تم جمع معطيات في قرابة أربعين مجلدا بين (1844م و1867م)، وقد اضطلع العسكريون بنصيبهم في هذا التحري، وكان على رأسهم "إميل كاريت" (Emile Carette) و"بولوسيي" (Pelissier)، وقد استدعيت التخصصات والعلوم كالتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبية والفيزيائية والحفريات لكي توفر نظرة أمنية عن الآخر، أي هذا العربي أو هذا البربري، بما أنهم ينكرون عليه تسمية أخرى.[3]

ولقد تم تصنيف الأربعين مجلدا حسب المواضيع والخصوصيات التي يمكننا تلخيصها في النقاط التالية: الخصوصيات العامة للغة البربرية، علاقة الخصوصيات اللغوية بالتنوع الجغرافي، وصف أهم النشاطات الاقتصادية الموجودة في المنطقة، وأهم الثروات، التجارة والأسواق، وصف الجانب الديمغرافي وتركيبته الاجتماعية مع تحديد توزيعه وكثافته.

---

[1] – فيليب لوكا، جان كلود فاتان : جزائر الأنثروبولوجيين، نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، مرجع سابق، ص ص9 – 10.

[2] – بلقاسم بن زنين، الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي (مخطوط)، مرجع سابق، ص 20.

[3] – فيليب لوكا جان كلود فاتان : جزائر الأنثروبولوجيين، نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، مرجع سابق، ص 9.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية
العلوم الانسانية
و العلوم الاجتماعية
تلمسان

ويذهب المؤرخ الفرنسي "شارل أندير جوليان" – في هذا الصدد– إلى أنه وإلى غاية سنة 1847م لم يكن بين أيدي السلطة المحتلة في الجزائر سوى تقريرين رسميين كان يمثلان أهم ما يمكن معرفته عن الجزائر.[1] فلما وطئت أقدام المستعمر أرض الجزائر لم تكن لديها من المعرفة سوى أنها كانت بكل ابتذال أرضا تركية تصلح للاغتصاب.[2]

ولما استشعر المستعمر ضرورة ومعرفة الآخر، لم يجد من يصلح لهذه المهمة سوى الجيش، وفي سنة 1837 م قرر وزير الحرب البدء في استكشاف الجزائر علميا، ولكنه لم يجد على أرض الميدان سوى أفراد الجيش الذين أنجزوا عمل السوسيولوجيين والمؤرخين والألسنيين.[3]

وبهذا سلِّمت الجزائر إلى هواة من ضباط الشؤون الأهلية وصغار المعلمين والرحالة والمبشرين الذين ارتجلوا علم الاجتماع، والذين لم يكن هدفهم البحث العلمي "فلم يهتموا بإعداد ملفات وتقديمها كتقارير ... بل كانوا يقدمون انطباعات مرفوقة بآرائهم الشخصية.[4]

ولم يكن هناك ما يحثهم على الاجتهاد والتعمق، لأن ما هو سطحي عند الأهالي كان كافيا لهم لتفسير الأمور، وتقديم صورة حسبوها مكتملة المعالم حول حياة هذا الشعب وأنماطه السلوكية والاعتقادية.

ويقدم كتاب "جزائر الأنثروبولوجيين" أمثلة عن كتابات سطحية لعسكريين لم تكن إلا وصفا شكليا بعيدا عن التعمق في أغوار حياة وثقافة الأهالي. فكتابات الملازم العام للشرطة "أوبينوز" –على سبيل المثال– لم تقدم عن طرائق عيش الجزائريين إلا "تفاصيل حول طرائق عيش السكان الحضر، وهي من وضع رجل لا يعرف الجزائر إلا من خلال هذه الملفات التي انبثقت منها أول رؤية متناسقة للعلاقات بين وضع قطر والمنزلة التي يراد منها".[5]

ويذهب "بلقاسم بن زنين" الذي قدم قراءة قيمة لكتاب "جزائر الأنثروبولوجيين" إلى أنه وبغض النظر عن بعض أعمال العسكريين التي كانت عبارة عن مذكرات لم توجه بشكل مباشر لخدمة الاستعمار، فقد كان من أول ثمار أعمال العسكريين كتاب الضابط (Merle) وعنوانه "طرق تاريخية وسياسية للإفادة في تاريخ غزو الجزائر" سنة 1830م طبع سنة 1831م، ثم أعيد طبعه سنة 1832م، وكتاب آخر للنقيب "روزت" (Rozet) الذي كان في نفس الوقت جغرافيا "رحلة إلى مدينة الجزائر أو وصف بلد محتل من طرف الاستعمار

1– شارل أندريه جوليان: تاريخ الجزائر المعاصرة، باريس، 1964م، ص56.

2- Philippe Lucas et Jean Claude Vatin, l'Algérie des anthropologues, maspéro, paris, 1982, p. 11.

3 - Benjamin Stora, Histoire de l'Algérie colonial (1830-1945) ENALE, Houma, Alger, 1996, P18.

4 - P. Lucas et J.C Vatin, op.cit, p. 11.

5– فيليب لوكا جان كلود فاتان : جزائر الأنثروبولوجيين، نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، مرجع سابق، ص 9.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية
العلوم الإنسانية
والعلوم الإجتماعية
تلمسان

الفرنسي في إفريقيا" طبع سنة 1833م في ثلاثة أجزاء؛ والملاحظ من هذه الكتابات الأولى أنها كانت مقتصرة على مدينة الجزائر، ثم سرعان ما توسعت فيما بعد لتشمل المناطق المجاورة خاصة "متيجة" التي كانت أراضيها الخصبة مطمع المستوطنين، ثم منطقة القبائل في مرحلة لاحقة باعتبارها تمثل خصوصية ثقافية متميزة وتنظيما اجتماعيا مغايرا لما وجده الفرنسيون في الجزائر العاصمة.[1]

ولعل من أهم الدراسات التي أجريت على منطقة القبائل نجد:

1. Daumas: la grande Kabylie : étude historique, 1847.
2. Carette: étude sur la Kabylie proprement dite, 1848.
3. Deyaux: les Kbails du Djurdjura, 1859.
4. Warnier: l'Algérie devant l'empereur, 1865.
5. Duval: la politique de Napoléon en Algérie, 1866.
6. Chatelin: en Algérie, en Kabylie et les oasis, 1886.
7. Charveriat : huit jours en Kabylie, 1889.
8. Hanoteau et letourneux : la Kabylie et les coutumes kabyles, 1893.

هذا بالإضافة إلى الدراسات التي قام بها "ماسكوراي"، "رونيياسي" و"غابريال غامبس" وآخرون فيما بعد، وهي دراسات قامت على الإثنولوجيا والإثنوغرافيا لسكان الجزائر عامة وساكنة القبائل خاصة، والتي صنّفت من ضمن الدراسات الأكاديمية، قام بها باحثون أكاديميون.

وقد كان يروم الأنثروبولجيون العسكريون من خلال دراساتهم إلى التوصل لمعرفة السكان من خلال الخوض في ثقافته المحلية، وذلك من أجل تسهيل عملية انقياده، وذلك ما يبرز من خلال تصريح أحد مهندسي الدراسات الأنثروبولوجية العسكرية التي قال بأنه "ينبغي الاستيلاء على روح هذا الشعب قبل الاستيلاء على جسده".[2]

وبذلك شكلت دراسات الأنثروبولوجيين العسكريين – في عمومها الغالب – باستثناء البعض أحكاما قبلية غير مؤسسة على أي مرجعية معرفية، وهذا راجع بالأساس إلى عدم اختصاص هؤلاء العسكريين في مجال البحث

[1] – بلقاسم بن زنين، الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي (مخطوط)، مرجع سابق، ص ص 19– 20.

[2] - EL Baki Hermasi, Etat et société au Maghreb, édition anthropoïde, Paris, 1975, P70.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية
العلوم الإنسانية
و العلوم الإجتماعية
تلمسان

الأنثروبولوجي، وخوضهم غماره كما يقول "عبد الباقي الهرماسي" صدفة.[1]

فالعمل الأنثروبولوجي للعسكر – والذي أعقب الغزو مباشرة– لم يكن سوى تشويها للحقائق وتزويرا لها هو في واقع الحال، وذلك من خلال تقديمه للمجتمع الجزائري تقديما جافا، ووسمه إياه بالجمود والسلبية والاستسلام، وأحيانا عدة بالدناءة والخسة والحقارة، وبذلك كانت تقارير العسكريين بمثابة تبريرات أخلاقية لعملية غزو شعب بغية تخليصه من براثين التخلف، باعتباره شعبا ممزق التشكيلات الاجتماعية، شعب بلا تاريخ، وهكذا "لا يكون للغرب أية مسؤولية في جمود هذه المجتمعات، لأن هذه الحالة سابقة على التوسع الاستعماري".[2]

بيد أن هذا لا يعني أن بعض الأعمال لبعض العسكريين لم تكن مهمة من الناحية المعرفية؛ فالبحث الأنثروبولوجي للعسكريين شكل نقطة البدء للاستكشاف المعرفي للجزائر، ولا يمكن إنكار حجم المادة المعرفية التي قدمها العسكريون، والتي تناولت الإنسان الجزائري بالدراسة والبحث، ثم إن هذه الأبحاث تطورت منهجيا، بمرور الزمن فجسدت بذلك تطويرا ذاتيا لروح البحث الأنثروبولوجي في الجزائر.

كما أن هذه الأبحاث أصبحت أكثر دقة بعد أن كانت تتميز في انطلاقتها الأولى بالشمولية والمحلية، وكان أولى مظاهر هذا الاهتمام وضع عدة قواميس مثل القاموس "الفرنسي الأمازيغي"، الذي ألفه العقيد "لابان" (Lapène) سنة 1837م.[3]

لقد شكلت السنوات التالية للاحتلال بداية توجه معرفي مهم للأنثروبولوجيا العسكرية خصوصا بعد إعلان وزير الحرب الفرنسي القيام بحملة استكشافية، كان من أبرز القائمين بها الضباط "كارت" (Carette)، "رينو"(Reynaud)، "دوسلان" (Deslane)، وبتوجيه من العقيد " بوري دو سان فانسون" (Bory de st vincent)، انكب أعضاء اللجنة العلمية على إعداد جرد منهجي للبلاد في مختلف مجالات الطبيعيات والتاريخ وعلم الآثار والاثنوغرافيا، وشملت أعمالهم أيضا الترجمة التي كلف بها الضابط "دوسلان" (Deslane).[4] هذا الضابط الذي كان من أصل إيرلندي، وكان يعد من أشهر المستعربين الأوربيين، اهتم بالترجمة، ومن أعماله الكبرى ترجمته لمقدمه ابن خلدون، التي عدت مرجعا أساسيا في البحث الأنثروبولوجي الاستعماري، وقد تمت هذه الترجمة بفترة وجيزة قبل تحرك الآلة العسكرية الفرنسية نحو الجزائر.

---

[1] - Ibid, p27.

[2] - M. Daumas et M. Faber, La grande Kabyle, études historique, Paris, 1847, P12.

[3] – بلقاسم بن زنين: الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي، مرجع سابق، ص 21.

[4] – المرجع نفسه، ص 21.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية
- 1 -

كما أن حوليات "بوليسيي" و"رينو" الجزائرية (Les annales algeriennes) كانت تمثل الإحصائيات الأولى المنتظمة التي بفضلها يمكن استقاء المعلومات وصياغة استراتيجية الهيمنة النشطة التي ليست فقط أثرا بسيطا من آثار ضخامة الدولة الاستعمارية وإيمان الفرنسيين بقيمتهم، بل هي نتاج إرادة القوة التي تطول جميع جوانب المقاومة المحتملة التي تصدر عن الخصم، غير أن هذه الهيمنة لا تريد ولا تقوى أن تمارس في كل مكان وفي ذات الوقت، والتي تزعم أولا أنها غزو بالسلاح، لهذا ألقيت الضباط الذين هم يتهيبون من الخصم وقواته وضعفه وإمكاناته المادية والرجال والأسلحة وإمكاناته النظرية أي المعتقدات والإيمان، إن السعي إلى جس طاقات الوحدة معناه أولا معاينة المجموعات وتحالفاتها ونظام تحالفها وصراعاتها.[1]

وهكذا شرع الضباط السامون ومن هم دونهم شأنا في تقديم الأجوبة الأولى،[2] أجوبة كانت في شكل تقارير ومدونات لضباط عاينوا التجمعات القبلية والإثنية في الجزائر وقدموا ما عاينوه في قالب دراسي، بيد أن الهدف منه كان واضحا وجليا، وهو معرفة نقاط قوة وضعف هذا الآخر "العدو" المثير للدهشة، والريبة والحذر.

وإذا كانت الأنثروبولوجيا العسكرية قد انتقلت من "الاستراتيجية" إلى"التكتيك" فإنها تحولت فيما بعد إلى البحث في أدق التفاصيل التي تخص السكان وقادتهم الذين رفعوا لواء المقاومة، تلك المقاومة التي كان لها أثرها البالغ في ظهور المزيد من الأعمال، خاصة وأن بعضا من هؤلاء العسكريين أصبحوا مقربين من قادة المقاومة ورؤساء القبائل حتى أننا نجد أن الأمير عبد القادر يسم أحد كتب "ليون روش" (Leon roches) بمقدمة يشيد فيها بأعماله.[3] هذا الضابط الذي كان مترجما في الجيش الفرنسي، تم اتصل بالمقاومة الشعبية "للأمير عبد القادر" وكان من مقربيه، وقد أثيرت عديد من الشكوك حوله وحول حقيقة وجوده بين ظهراني المقاومة، وبالتالي طبيعة المهمة التي كان منوطا بها حينئذ.[4]

فعمل هؤلاء الضباط متجليا في عشرات المؤلفات، قد أسهم في شكل لا يمكن إنكاره أو إغفاله في التأسيس للمعرفة الأنثروبولوجية في إحدى أهم فترات التاريخ الجزائري.

---

[1]- فيليب لوكا جان كلود فاتان : جزائر الأنثروبولوجيين، نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، مرجع سابق، ص ص 11- 12.

[2]- المرجع نفسه، ص12.

[3]- بلقاسم بن زنين :الجزائر في الفكر الأنثروبولوجي،مرجع سابق، ص24 ، (بتصرف)

[4]- يوسف مناصرية، ليون في الجزائر والمغرب، (1832-1847)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990م.

جامعة أبو بكر بلقايد - 1 - تلمسان
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

وكمثال نذكر تلك التي أقيمت على منطقة تراة بتلمسان من طرف الضباط "نواكس" (Noix) و"قينار" (Guinard)، و"بواتل" (Boitel) الذين ركزوا على المعرفة المعمقة للمنطقة من كل الجوانب.[1]

ولعل من أشهر الدراسات العسكرية تلك التي أنجزها كل من "أدولف هانوتو" [2] (A. Hanoteau) وكذا "لوتورنو" (A. Letourneux) في دراستهما المشهورة حول منطقة القبائل: "منطقة القبائل وأعرافها" (La Kabylie et les coutumes kabyles)، التي صدرت سنة 1893م. كنموذج للمدرسة الكولونيالية التي ركزت كثيرا على المجتمع القبائلي، وهي من الدراسات الأولى التي قامت بها فئة الضباط والعسكريين، بل إن أصحابها يحتلون مناصب هامة ورفيعة في شؤون الإدارة العسكرية بالجزائر. الشيء الذي يترجم اهتماماتهم وانشغالاتهم الأيديولوجية والمعرفية حول بعض القضايا التي نعالجها عند عرضنا لمحتوى الدراسة التي نحن بصددها والمشار إليها أعلاه.

إذ يمكن تصنيف دراسة "هانوتو- لوتورنو" من بين أهم وأكبر الدراسات الكولونيالية التي عرفتها الجزائر إبان العهد الاستعماري الفرنسي. إذ تعد ضمن المشاريع الدراسية الكبرى للمشروع الفرنسي.

ومن بين أهم العوامل والأسباب التي دفعت الإدارة الاستعمارية إلى التفكير والتخطيط في مثل هذه المشاريع والدراسات هو بروز المقاومات الشعبية ومدى خطورتها على مستقبل الوجود الاستعماري. حيث أن المهمة العاجلة التي أنجزت من أجلها هذه الدراسة، هي تنظيم الإدارة الاستعمارية وتوسيعها لتشمل مناطق أخرى جديدة، خاصة منطقة القبائل التي ما زالت حينها لم تدخل في إطار الهيكلة الإدارية الاستعمارية، الأمر الذي أدى بالسلطة الاستعمارية أن توجه اهتماماتها بتنظيم بحوث ودراسات إثنوغرافية وتاريخية، غرضها وصف الوقائع الاجتماعية من العادات والتقاليد والأعراف التي تعكس طبيعة الحياة الاجتماعية للأهالي والأعراش.

---

[1] - Nedroma et le pays des Traras, description par M. Boitel, A.Canaval, S.G/A.P.O tome XI.1891.

[2] - أدولف هانوتو (1814- 1897) ضابط فرنسي مشهور، كرس حياته لخدمة مصالح الاستعمار الفرنسي في الجزائر بالبندقية والقلم. وصل إلى الجزائر سنة 1845 برتبة ملازم، وعين سنة 1846 موظفا في الإدارة المركزية للشؤون العربية التي كان يشرف عليها الجنرال أوجين دوماس، واقتضت منه هذه الوظيفة تعلم اللغتين العربية والأمازيغية، الضروريتين للتواصل مع الجزائريين والإحاطة بثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم، بهدف توفير سبل النجاح للمشروع الاستعماري. ثم عين رئيسا لمكتب الشؤون العربية بالمدية لبعض الوقت، ليشارك بعدها في الحملات العسكرية التي استهدفت منطقة زواوة (القبائل) خلال سنوات 1847م، 1854م، 1856م، وفي سنة 1859م عين قائدا على مركز ذراع الميزان العسكري، ليحول إلى ثكنة حصن نابليون (لربعا ناث يراثن) سنة 1860. ثم عاد إلى مدينة الجزائر سنة 1862 لتسند له المديرية العامة لشؤون الأهالي، ليعود ثانية إلى قيادة ثكنة (لربعا ناث يراثن) سنة 1866م، وهناك تم التحرير النهائي لكتابة موضوع الدراسة.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية
العلوم الإنسانية
و العلوم الإجتماعية
تلمسان

ويعد هذا الكتاب بمثابة "موسوعة ثقافية – اجتماعية" لمنطقة جرجرة في القرن التاسع عشر، علما أن المؤلف لم يخف الغاية من تأليفه، إذ أشار في مقدمته إلى أهميته في مساعدة الإدارة الفرنسية على بسط نفوذها، وهدم القضاء الإسلامي، تمهيدا لتكريس القضاء الفرنسي في المنطقة.

كان "هانوتو" في أمس الحاجة إلى من يساعده على تحرير كتاب "القبائل وطبائع أهلها"، فلما عرض الفكرة على "لوتورنو" المستشار القانوني لمحكمة الجزائر صائفة 1863م، رحب بها أيما ترحيب، خاصة وأنه كان ضالعا في الفقه الإسلامي، ومتمكنا من اللغة العربية، فضلا عن كونه عاشقا لركوب المغامرة في المجالات الاستكشافية، وكونه مهتما بمنطقة القبائل بصفته هاويا لاكتشاف النباتات الطبيعية ومعرفة أسرارها.

ثالثا: فترة الدراسات الأكاديمية.

إلى جانب الدراسات الاستكشافية والأبحاث العسكرية التي كانت تشكل الحيز المعرفي للدراسات الكولونيالية، نجد انتشار صنف آخر من الدراسات حول الإنتاج المعرفي الأكاديمي، والتي تطورت كثيرا ابتداء من سنة 1870م، وهي الدراسات الأكاديمية.

ويرجع سبب تصنيف هذه الدراسات في حقل الدراسات الأكاديمية، إلى طبيعة البحوث في حد ذاتها، وكذلك إلى أصحابها الذين ينتمون إلى فئة الجامعيين الذين تمكنوا من تأليف دراسات وأطروحات جامعية مختلفة، تمحورت أساسا حول الإيديولوجية المعرفية والعلمية للإدارة الاستعمارية.

أي أن هذه الأبحاث رغم كونها أبحاثا جامعية وأكاديمية بقيت دائما في خدمة الحاجات والمشاريع والأغراض الاستعمارية، بحيث أنها تشكل الإطار المعرفي والعلمي لكثير من التوجيهات والإجراءات العلمية للإدارة الاستعمارية خلال سنوات عديدة.

ومن هذه الدراسات نذكر على سبيل المثال لا الحصر، الدراسة المونوغرافية التي قام بها "كونيل"[1] (A.Cauneille) حول قبائل الشعابنة، وأعمال "إميل مسكراي" (Emile Masqueray) بين السنوات 1873م و1886م خاصة عمله (Formation des cités chez les populations sédentaires de l'Algérie, Kabyles du Djurdjura, Chaouia de l'Aouras, Béni Mezab) "تشكل الحواضر بين السكان

[1]- A. Cauneille , Les Chaanba (leur nomadisme) évolution de la tribus durant l'administration Française, Paris, Centre nationale de la recherche scientifique . 1968, p 33.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية
العلوم الإنسانية
والعلوم الاجتماعية
- 1 -
تلمسان

المستقرين في الجزائر: قبائل جرجرة، شاوية الأوراس، بني ميزاب" التي ركز فيها على ثلاث وحدات اجتماعية جزائرية لها تقاليد عريقة هي: القبائل، المزاب، الشاوية، حتى وإن كان الكثير يصنف دراساته في المرحلة الثانية خصوصا أنها أنجزت زمنيا ضمنها، لكنها لا تفقد القيمة الأكاديمية. ثم ظهرت بعدها الكثير من الدراسات التي اعتبرت أكاديمية علمية، منها أعمال "مونييه" (Robert Maunier)، و"إيفون توران " (Iphone Taurine)، و"لويس رين" (Louis Rinn)،[1] بالإضافة إلى الأعمال المتأخرة لبعض الباحثين أمثال "بيير بورديو" (Pierre) Bordieu، "جاك بيرك" (Jacques Berque)،[2] و"جيرمان تيون" (Germaine Tillon)، "فاني كولونا" (Fanny Colonna)، "بنجامين ستورا" (Benjamin Stora) وبعض الأعمال التي أجريت حول المغرب الأقصى وكانت على ارتباط وثيق بالجزائر، كأعمال "روبير مونتاني" (Robert Montagne)، "إرنست غلنير" (Ernest André Gellner) و"كليفورد غيرتز" (Clifford Geertz)، و"إدموند دوتي" (Edmond Doutté)وغيرهم. ومن بين الأعمال التي يمكن الاستئناس بها كذلك نذكر:

«Les mœurs et les institutions sociales des populations indigènes du nord de l'Afrique, 1954».

تميزت هذه الفترة بالدراسات ذات المواضيع المتعددة والتي كانت تحاول فهم حقيقة التركيبة المجتمعية للجزائر، والوصول إلى بنيته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية والسياسية والرمزية، الخفية منها أو الظاهرة.

يعني ذلك أن الدراسات الأنثروبولوجية التي تعتمد على الملاحظة قدمت خدمات جليلة للاستعمار في التعرف على المجتمع الذي يريد السيطرة عليه، وبالتالي إحكام قبضته عليه بنوع من السهولة لم تكن لتتأتى لولا هذه الدراسات.

وبقدر ما نحتاج إلى مؤلفات "هانوتو" و"ماسكوراي" وغيرهما، التي لا يمكن القفز عليها – باعتبارها مدونة وثائقية نافعة – فإن الاستفادة منها يقتضي إعادة قراءتها قراءة علمية وموضوعية جديرة بتخليصها من الرؤية الاستعمارية.

[1]- Louis Rinn, Marabouts et khouans, Etudes sur l'Islam en Algérie. Adolphe Jourdan, Alger, 1884, p.17.
[2] - Jacques Berque, Structures sociales du haut atlas ;Paris, PUF, 1955.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية
- أ -
تلمسان

المجلس العلمي

المحاضرة الثالثة:

المرحلة الثانية: واقع الأنثروبولوجيا في الجزائر غداة الاستقلال أسبابه.

الواضح أن الأنثروبولوجيا لم تحقق لنفسها مكانة متميزة في حقل العلوم الاجتماعية بالجزائر بعد الاستقلال. ويعزو الكثير من الدارسين ذلك إلى العديد من الأسباب، نذكر منها:

أولا: اقتران علم الأنثروبولوجيا بالتوجه الكولونيالي– الاستعماري. (الأنثروبولوجيا علم الاستعمار)

شكلت هذه الفكرة عائقا في إرساء دعائم الأنثروبولوجيا في الجزائر غداة الاستقلال، بل إن فكرة اقتران الأنثروبولوجيا بالتوجه الاستعماري تعد من ضمن العوامل الأساسية التي أسهمت في تأخر اعتماد الأنثروبولوجيا كتخصص علمي ضمن المنظومة التعليمية في الجامعة الجزائرية، إذ أن من المفارقات الأساسية التي يمكن تسجيلها ضمن هذا السياق هو وجود تشابك وتقاطع بين اهتمامات الدراسة الأنثروبولوجية من جهة والأهداف الاستعمارية من جهة أخرى، لكون إحدى أساسيات "البحث الأنثروبولوجي تكمن في دراسة الآخر، أو ما يعرف بالبحث في الغيرية "Altérité".[1] إذ مع سيادة النزعة التطورية في تفسير الظواهر خلال نشأة الأنثروبولوجيا، استقر لدى الأوروبيين أن الحضارة البشرية كلها تتطور حسب نظم وقواعد ثابتة وموحدة لا تتغير باختلاف المكان والزمان. وهذا يعني أن الشعوب البدائية تمثل المراحل الأولى في التطور بالنسبة للمجتمعات المتقدمة، لتكون بذلك صورة المجتمعات البدائية في إفريقيا وأستراليا وأمريكا أصلا حضاريا للشعوب الأوروبية المتقدمة. ويمثل هذا نوعا من "التبرير العلمي" لاندفاع الأوروبيين نحو فهم تركيبة وثقافة المجتمعات الأخرى، بما يظهر نوعا من التوافق بين الأنثروبولوجيا والاستعمار، بين أيديولوجية الاستعمار وأيديولوجية الأنثروبولوجيا.

ويرى "جيرار لكلرك" أن الأنثروبولوجيا تعمل على تسويغ الاستعمار وتقديمه كحتمية "علمية" غرضها إجلاء "البدائية" عن الشعوب المستعمرة وإدخالها في مسيرة التقدم.[2]

ولقد ارتبطت الأنثروبولوجيا في الجزائر خلال الفترة الاستعمارية بالتوجه الكولونيالي، من خلال الدراسات الأنثروبولوجية التي قام بها عدد من الإداريين والضباط العسكريين ورجال الدين والأنثروبولوجيين المدفوعين من قبل الإدارة الاستعمارية بهدف التعرف أكثر على الخصوصية الثقافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري، وتسليط الضوء

---

[1]– بيار أربي، إثنولوجيا التربية، ترجمة: عدنان الأمين، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1992م، ص41.

[2]– جيرار لكلرك، الأنثروبولوجيا والاستعمار، مرجع سابق، ص 36.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية
العلوم الإنسانية
و العلوم الإجتماعية
تلمسان

على عاداته، تقاليده وأعرافه، الأمر الذي ساعدها في تكريس حكمها الاستعماري طيلة هذه الفترة. وامتدادا لهذا رسخ في ذهن الجزائريين سواء بتوجههم الرسمي أو غير الرسمي ارتباط الأنثروبولوجيا بالاستعمار كعلم استعماري.

لقد شكلت الجزائر بالنسبة للمستعمر الفرنسي ذلك العالم الغريب المجهول، لهذا وظف كل طاقاته البشرية والعسكرية والدينية لإخضاع الأهالي واستغلال خيرات البلاد.[1] لقد تطلبت عملية الإخضاع هذه ضرورة التعرف على العدو، نقاط ضعفه، عاداته وتقاليده وأعرافه، قيمه الدينية والثقافية.

وفي هذا الصدد يقول "رينيه مونيه" (R. Mounier):" إن لنا مصلحة نظرية وتطبيقية لنتعرف على حياة الشعب الجزائري، أولا لأنه من حقنا ومن واجبنا نحن الفرنسيين، أن نعرف ونفهم جميع الشعوب التي نحميها وندير شؤونها، ولا نتوقف أبدا عن القيام بالواجب نحوها، ولما في تنظيم الدراسات من غايات مادية تطبيقية، باعتبار أن العلم مصدر للنفوذ والحكم".[2]

هكذا ارتبطت الأنثروبولوجيا الاستعمارية في تناولها للمجتمع الجزائري بأهداف وخطط الاستعمار الفرنسي الرامية إلى سلب الأمة الجزائرية هويتها وإحكام السيطرة عليها. لقد سخر علم الأنثروبولوجيا الاستعماري لتنفيذ سياسته المتمثلة في زرع بذور الفتنة والحقد والتفرقة بين أبناء الوطن الواحد.[3] ولقد شكلت الثنائية عرب–بربر محور اهتمام الدراسات الاستعمارية، باعتبار هذه الثنائية تمثل بالنسبة إليها مدخلا أساسيا لزرع بذور الشك والفتنة والشقاق بين أفراد الشعب الواحد. وبرز في هذا المجال المارشال "بيجو" (Thomas Robert Bugeaud) حيث يقول: "سكان الجزائر ينقسمون إلى سلالتين متميزتين، السلالة العربية والسلالة القبائلية، وكلاهما يتبع الدين المحمدي، إلا أن طبائعهم وتكوين مجتمعاتهم بالإضافة إلى جذورهم التاريخية ولغتهم يشكلان قسمين متميزين، ونحن نسعى إلى فحصهما".[4]

لقد اقترن الحديث عن الأنثروبولوجيا في الجزائر غداة الاستقلال وبصورة رهيبة بأسئلة حرجة وصعبة وخطيرة، كادت أن تعصف بالكيان العلمي للتخصص نفسه كعلم أصيل وعريق، وبالتراث الشعبي الذي ظل

---

[1]– فيليب لوكان وجون كلود فاتان، جزائر الأنثروبولوجيون: نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، مرجع سابق، ص8.

[2]– محمد نجيب بوطالب، صورة العربي الآخر ناظرا ومنظورا إليه، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1990، ص438.

[3]– جمال معتوق، واقع وآفاق علم الاجتماع في المغرب العربي: الجزائر، أطروحة دكتوراه دولة (عمل غير منشور) قسم علم الاجتماع، الجزائر، 2000، ص81.

[4]– جمال معتوق، لمحة تاريخية عن الممارسة في الجزائر حالة معهد علم الاجتماع بالعاصمة، مجلة الدفاتر الجزائرية لعلم الاجتماع، الجزائر، دار الحكمة، العدد1، 2000، ص36.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
تلمسان

موضوع مراهنات غير مسؤولة وغير علمية ظلت تلاحقه مدة من الزمن، حيث ناصب الموقف الرسمي هذا العلم العداء وغالى في التنكر له والإصرار على رفض اعتماده في الجامعة الجزائرية، وذلك بناء على معطيين هامين:

أولهما تاريخي كرس محاكمة هذا العلم على ماضيه البغيض في حق المجتمع الجزائري، وهو الذي ارتبط في المخيال المعرفي للنخبة الحاكمة بأنه علم استعماري سخرته المنظومة الكولونيالية الفرنسية لخدمة أغراضها التوسعية.[1] كما تقره توصيات الملتقى الدولي المنعقد في شهر مارس 1971م في الجزائر، حول: "إصلاح وتقنية تعليم العلوم الاجتماعية وإشراكها في التطور الاقتصادي وإعادة هيكلتها"، والتي دعت إلى وجوب: "أن تتخلص العلوم الاجتماعية في البلدان التي استعمرت في القديم من منازعات الماضي الاستعماري، أين استعملت العلوم الاجتماعية – المقصود هو الأنثروبولوجيا- في هذه البلدان بطريقة علمية لتستعبد وتستلب وتزيل الهوية".[2] ومن هنا مثلت الفترة الممتدة ما بين 1971م إلى غاية 1983م ثورة حقيقية في مجال التعليم العالي عموما وعلم الاجتماع خصوصا، حيث أجري أول تعديل أو إصلاح جامعي عام 1971م، أي أنه أعيد النظر في العملية التعليمية والتكوينية، بربطها بالمشروع التنموي الذي تبنته السلطة السياسية في تلك الفترة، والقائمة على فكرة الاقتصاد الاشتراكي المرتكز على مبدأ التخطيط في كافة المجالات.[3]

وثانيهما إيديولوجي، عكس التخوف منه في ظل الاعتقاد السائد لدى النخبة الحاكمة كما ورد في لائحة الاتهام الموجهة إليه، بأنه يحمل دلالات إثنوية (Ethnicistes) ويكرس الانقسامية بين مكونات المجتمع الواحد، وهو ما يجعل منه عامل تهديد مباشر للمخزون الاثنوجرافي من خلال دعوته للجهوية وبحثه في موضوع الهوية المحلية، واهتمامه بطبيعة التركيب الإثني والثقافي لكل من بلاد القبائل والأوراس، وبدرجة أقل الميزابيون والطوارق، والذين كانوا يحتلون مكانة مهمة في الدراسات الأنتروبولوجية في عهد سابق.[4] وهو ما يتنافى كلية مع الرؤية الرسمية الباحثة عن مشروع لإيديولوجيا وطنية تنزع فيه لإذابة نتائج العمل الاستعماري، حيث لا تمثل القبيلة واللهجات

---

[1]– محمد سعيدي، الأنثروبولوجيا والتراث الشعبي في الجزائر: (تاريخ ومسارات)، (04 ديسمبر 2015).
على الموقع: http://www.jadaliyya.com/pages/index/23319 (يوم 2021/06/15).

[2]– نور الدين كوسة، إشكالية المصطلح في الدراسات الأنتروبولوجية رصد للتمظهرات ومساءلة في علل الإضراب–التجربة الجزائرية نموذجا، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 16، جامعة فرحات عباس، سطيف، الجزائر، ديسمبر 2012، ص04.

[3]– الطاهر ابراهيم، نحو علم الاجتماع لما بعد التعددية السياسية في الجزائر، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بسكرة، نوفمبر 2006، ص 63.

[4]– محمد إبراهيم صالحي، الأنثروبولوجيا والأنثروبولوجيا الدينية في الجزائر: عناصر من أجل حوصلة المعارف، ورقة بحث مقدمة ضمن أشغال الملتقى الدولي حول: مستقبل العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، تحرير: ساري حنفي وآخرون، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2014، ص329.

والأصول والممارسات الدينية وعادات الزواج والنظم التقليدية ولا أي موضوع آخر من مواضيع الإثنولوجيا أو الفونوغرافيا محل اهتمام إلا ضمن الاهتمام العام بالمجتمع الجزائري ككل في وحداته الوطنية المحددة تاريخيا لا في اختلافاته داخل هذه الوحدة.[1]

وفي مقال لـ "عبد الرحمان موساوي" تحت عنوان " La pratique de l'Anthropologie en Algérie " يرى أنه إذا كان علم الاجتماع قد تم تبنيه منذ الاستقلال من قبل الجامعة الجزائرية تحت غاية وضعه مشروع المجتمع، فإن الأنثروبولوجيا لم تعرف نفس الاهتمام أبدا، متهمة بأنها خدمت المشروع الاستعماري، فهي قد عاشت نكسة رسمية منذ المؤتمر الخامس والعشرين لعلم الاجتماع الذي انعقد سنة 1974م في العاصمة الجزائرية. ويضيف في نفس السياق، أن وزير التعليم العالي "محمد الصديق بن يحي" في سنة 1970م ألغى تدريس الإثنولوجيا بحجة أنها علم كولونيالي، ويرجع السبب حسب رأيه إلى أن الدولة الوطنية " l'état national "، في تصورها الأحادي، لم تتقبل فكرة تواجد مجموعات إثنية متعددة.[2]

وخلاصة القول أن المشروع الأنثروبولوجي تم تعطيله خلال العقود الثلاثة التي تلت الاستقلال لأن الفكر النخبوي المؤطر للمجتمع الجزائري كان مسيّسا. فلم تكن الظروف سانحة لإرساء قواعد صلبة للأنثروبولوجيا في الجامعة الجزائرية لتدلوا بدلوها في فهم الإنسان الجزائري.

ثانيا: سوء الفهم للمعرفة الأنثروبولوجية:

لعل من ضمن العوامل التي عزّزت أيضا التوجه الذي أدى إلى كبح مشروع الأنثروبولوجيا في الجزائر بعد الاستقلال، تلك الأحكام المسبقة وغير الصائبة التي بنيت على سوء الفهم للمعرفة الأنثروبولوجية، من حيث المحاور والمواضيع التي تدخل ضمن نطاق حقل اشتغال هذه الأخيرة، ومن ضمن جوانب سوء الفهم المتعلقة بالمعرفة الأنثروبولوجية حسب وجهة نظر الأنثروبولوجي المغربي عبد الله حمودي، ذلك الاعتقاد السائد لدى شريحة واسعة من أفراد المجتمع بما فيهم فئات المتعلمين، بأن الأنثروبولوجيا إنما تهتم بموضوعات مبتذلة ومتجاوزة "كالقبيلة والسلالة والعرف والأمازيغيات وما سمي بالفلكلور وحكايات العجائز".[3]

---

[1] – عمار يزلي، الجزائر والأنثروبولوجيا: المناهج والموضوعات، ورقة بحث مقدمة ضمن أشغال الملتقى الوطني حول: علم الاجتماع والمجتمع الجزائري، تحرير: عبد القادر لقجع، الجزائر، دار القصبة للنشر، 2004، ص85.

[2] - Abderrahmane MOUSSAOUI, La pratique de l'Anthropologie en Algérie, 2014.

[3] – عبد الله حمودي، في إعادة صياغة الأنثروبولوجيا، سلسلة محاضرات مركز الدكتوراه "الإنسان والمجال في العالم المتوسطي"، رقم (4)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2010، ص12.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية
- 1 -
تلمسان

على اعتبار أن أهم ما ميّز المساهمات الأولى في البحوث الأنثروبولوجية خلال مرحلة تشكّلها، بالإضافة إلى لجوئها إلى الطابع التعميمي، تميّزها بالطرح التقليدي على مستوى المناهج والنظريات، وكذا اتسام أغلب المساهمات حول الثقافة بالطرح الفلكلوري وتغييبها للإشكاليات المعاصرة، لاختراق موضوعات جديدة وإثارة بعض الزوايا المغيبة، والتي تمثّلت على الوجه الخصوص في دراسة المجتمع البدائي وثقافته، بوصفه الموضوع والمجال المفضل للأنثروبولوجيا التقليدية، إلى جانب الاهتمام بكل ما يرتبط بالثقافات التقليدية وكذا الموضوعات التي تتصل بالرواسب الثقافية وبقايا الثقافات الآيلة للزوال أيضا، وهو ما أفضى إلى تشكيل فهوم خاطئة ذات صلة بالمعرفة الأنثروبولوجية بشكل عام باعتبارها من المعارف المبتذلة والمتجاوزة.

إضافة إلى التخوف من فكرة التطور اللصيقة بالتراث الفكري الأنثروبولوجي، والتي تمس بالقناعات الدينية السائدة في الجزائر وفي البيئات المغاربية والعربية ككل، حيث يشير الأنثروبولوجي العراقي "قيس النوري" إلى ذلك القول أن هناك: "... من يعتقد مثلا أن هذا العلم يطرح نظريات وآراء لا تنسجم والتراث العربي الفكري والثقافي، ولعل نظرية التطور هي أحد مصادر هذا القلق".[1]

ولا شك أن هذه الفهوم الخاطئة والمشوهة التي بقيت تلازم الأنثروبولوجيا في البنيات الفكرية العربية بشكل عام بما فيها الجزائر، تعد أحد العوامل الجوهرية التي أعاقت عملية اندراج المعرفة الأنثروبولوجية ضمن حيّز الممارسة الأكاديمية وإعطائها المكانة التي تليق بأهميتها كفرع معرفي، والتي أفضت دون شك إلى تشكيل قناعة لدى الماسكين بزمام الأمور الأكاديمية في الجزائر وغيرها من البلدان العربية بعد الاستقلال بعدم جدوى اعتماد المعرفة الأنثروبولوجية ضمن الفضاء الأكاديمي، إذ لم يعد من المجدي حسب هذا الاعتقاد "حاجة لهذا العلم نتيجة التحول".[2]

ثالثا: تأخر اعتماد الأنثروبولوجيا كتخصص علمي في الجامعة الجزائرية.

من الملاحظات التي تسترعي الانتباه من خلال الاطلاع على التجربة الجزائرية في ميدان الدراسات الأنثروبولوجية على وجه الخصوص، أن هذا النوع من الدراسات يشكو من قلة المتخصصين فيه، نظرا لحداثة وقصر المدة الزمنية له- الدراسات الأنثروبولوجية- ضمن الممارسة العلمية الأكاديمية داخل الجامعة الجزائرية في إطار بحوث وأعمال أكاديمية منظمة، وكذلك على مستوى الدراسات والأبحاث وحتى التآليف الفردية المستقلة في

[1]- النوري قيس، فرص الأنثروبولوجيا في حركة التطور العربي، مجلة البحرين الثقافية، البحرين، العدد 27، يناير 2001، ص36.

[2]- المرجع نفسه، ص37.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية
تلمسان

المحيط الثقافي العام خارج الجامعة، إذ لم تزد المدة الزمنية التي صارت فيها الأنثروبولوجيا كتخصص علمي قائم بذاته يدرس في الجامعة الجزائرية عن نصف قرن.

ففي البداية كانت الأنثروبولوجيا تنشط في مراكز ثقافية تحت تسميات مختلفة إلى أن تبناها ما يعرف بـ "مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية"(CRASC)، أين تتعايش ميادين متنوعة من العلوم الاجتماعية والإنسانية. من هنا فإن الأنثروبولوجيا التي طوردت منذ البداية لجأت إلى المراكز للائتمان والاحتماء بعلوم ذات علاقة. أما عودتها إلى مقاعد الجامعات فتعتبر محتشمة، حيث كانت تدرس كمادة فقط في بعض الاختصاصات، لتوضيح الخصائص الثقافية مثل جامعة تلمسان (ماجستير في الثقافة الشعبية) وفي تيزي وزو (معهد اللغات والثقافة الأمازيغية). وكانت مهمتها توضيح مفهوم "الثقافة الشعبية" الغامض والمعقد. وفي هذا الصدد يرى الأستاذ "نذير معروف" أن الأنثروبولوجيا كتخصص كان يراد منه فقط تعزيز التراث والفلكلور واصطناع العلاقة القوية بينه وبين الهوية الوطنية، فيما يستثنى هذا التخصص من المشاركة في عمليات البناء والتنمية ولقد جاء الاعتراف بهذه المادة الدراسية مع تنصيب أول معهد وطني للثقافة الشعبية بجامعة تلمسان،[1]

رابعا: الاهتمام بالعلوم الدقيقة على حساب العلوم الاجتماعية بفعل الحاجة إلى التنمية.

لقد اتجهت الجامعة الجزائرية بعد الاستقلال بفعل الحاجة إلى التنمية – وبحسن نية– نحو العلوم الدقيقة والعلوم الطبيعية، في حين تم إهمال العلوم الاجتماعية والإنسانية ومنها الدراسات الأنثروبولوجية على وجه الخصوص، إذ لم تحض بنفس العناية والاهتمام الذي حظيت به العلوم الدقيقة، وهو ما انعكس سلبا على مردودها ومستواها. فجزائر الاستقلال ورثت عن الاستعمار الفرنسي اقتصادا منهكا ومجتمعا متخلفا وحصيلة ثقيلة من المظاهر السلبية على جميع الأصعدة والمستويات، إضافة إلى النقص الفادح في الإطارات العلمية المؤهلة للنهوض بمشاريع التنمية وهيكلة الاقتصاد المنهك.

ووفق هذه الظروف كانت الحاجة إلى التنمية الاقتصادية بالدرجة الأولى وما يترتب عن ذلك من ضرورة الإسراع في تحسين الأوضاع، تقتضي إقحام الجامعة في هذه العملية، لأنها تمثل ركيزة أساسية في بناء الأفراد الفاعلين من خلال إعداد الإطارات الفنية والكفاءات العلمية، وقد انعكس ذلك بشكل مباشر على برامج التكوين، إذ حظيت التخصصات ذات الصلة بالعلوم الدقيقة والطبيعية برعاية خاصة من قبل الهيئات القائمة على

[1]– مولاي الحاج مراد، مكانة التحقيق الميداني في الدراسات الأنثروبولوجية، مرجع سابق، ص23.

جامعة أبو بكر بلقايد
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
- 1 -
تلمسان

الجامعة، في حين كان يبدو أن التخصصات ذات الصلة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية ومنها الأنثروبولوجيا ليست ذات أولوية، إذ لم تنل الاهتمام كمادة دراسية في الجامعة الجزائرية "وبقيت كامنة لا تظهر إلا في مقاربات ثقافية لدراسة الظواهر السوسيولوجية". [1]

خامسا: انعدام الأمن في ميدان الدراسة.

إن انعدام الأمن في ميدان الدراسة يعد أحد الأسباب الأساسية التي أثرت على تأخر البحوث الأنثروبولوجيا. فالظروف الأمنية كانت عائقا أمام الباحث الجزائري، مما عمل على عدم الاستفادة من التحولات الاجتماعية والثقافية التي شهدها المجتمع الجزائري خلال تلك العشرية. فلا يمكن أن ندرس المجتمع الجزائري بدون استنطاق الواقع المعاش ومعاينة التحولات ميدانيا. فالميدان هو مخبر عالم الأنثروبولوجيا الثقافية.

سادسا: التبعية في مجال التصورات النظرية.

تقف مسألة التبعية في مجال التصورات النظرية الخاصة بالدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر، وراء هشاشة التجربة الجزائرية في هذا الحقل العلمي الجديد — الأنثروبولوجيا– ولا شك أن التبعية في مجال التصورات النظرية المتعلقة بالدراسات الأنثروبولوجية بشكل خاص والعلوم الاجتماعية بشكل عام ليست مشكلة تخص بلد كالجزائر وحسب، بل الأمر يتجاوز الحدود الإقليمية الضيقة ليشمل البلاد العربية ككل. وما دامت الأنثروبولوجيا تعد من العلوم الغربية الحديثة، فإن انتقالها إلى بقية البلدان الأخرى ومنها الجزائر، ودخولها إلى حيز الممارسة العلمية قد جاء متأثرا بالقوالب النظرية الجاهزة للمدارس الغربية.

إن من أهم مؤشرات ضعف الأصالة في البحث العربي، ندرة الأبحاث النظرية والمفاهيمية، والتي من شأنها تطوير نظريات ونماذج علمية تتناغم مع الإطار الثقافي والحضاري للمجتمع العربي، ونحن إزاء حقيقة غياب النظريات والنماذج التي طورها باحثون عرب في مختلف العلوم الاجتماعية والإنسانية. [2]

ولعلنا لا نجانب الصواب حين نشير إلى أن الحصيلة العربية المعاصرة في إطار العلوم الاجتماعية عامة والأنثروبولوجيا خاصة، ما تزال في طور الأفكار والملحوظات، بحيث لم ترق بعد إلى بلورة النسق المعرفي العربي في هذا الموضوع، إلا من بعض المحاولات التي لم تستطع تأصيل الموضوع والامتداد به للتأسيس لأنثروبولوجيا عربية

[1] – مولاي الحاج مراد، مرجع سابق، ص 22.

[2] – عبد الله البريدي: ضعف الإنتاج البحثي الإبداعي في العالم العربي، مجلة العلوم الإدارية والاقتصادية، المجلد4، العدد1، السعودية، 2011، ص51.